نزلت بنا ليال مباركة (2)

العشر الأواخر من رمضان .. خصائص وأحكام

جعل الله للعشر الأواخر من رمضان خصائص وميزات معينة ليست لغيرها من الليالي فجعل فيها ليلة القدر والاعتكاف وأنزل فيها القرآن. لذا يقول د.عبدالعزيز الفوزان: تأمل أيها المسلم في ساعتك. وانظر الى عقرب الساعة وهو يأكل الثواني أكلا، لا يتوقف ولا ينثني، بل لايزال يجري ويلتهم الساعات والثواني، سواء كنت قائما أو نائما، عاملاً أو عاطلاً، وتذكر أن كل لحظة تمضي، وثانية تنقضي قائما هي جزء من عمرك، وأنها مرصودة في سجلك ودفترك، ومكتوب في صحيفة حسناتك أو سيئاتك، فاتق الله في نفسك، واحرص على شغل أوقاتك فيما يقربك الى ربك، ويكون سببا لسعادتك وحسن عاقبتك، في دنياك وآخرتك.

أضاف واذا كان قد ذهب من هذا الشهر أكثره، فقد بقي فيه أجله وأخيره، لقد بقي فيه العشر الأواخر التي هي زبدته وثمرته، وموضع الذؤابة منه.

وبين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظم هذه العشر، ويجتهد فيها اجتهادا حتى لا يكاد يقدر عليه، يفعل ذلك – صلى الله عليه وسلم– وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما أحرانا نحن المذنبين المفرطين أن نقتدي به – صلى الله عليه وسلم– فنعرف لهذه الأيام فضلها، ونجتهد فيها، لعل الله أن يدركنا برحمته، ويسعفنا بنفحة من نفحاته، تكون سببا لسعادتنا في عاجل أمرنا وآجله، مستطردا: روى الامام مسلم عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: «كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يجتهد في العشر الأواخر، ما لا يجتهد في غيره». وفي الصحيحين عنها قالت: «كان النبي – صلى الله عليه وسلم– يخلط العشرين بصلاة ونوم، فاذا كان العشر شمر وشد المئزر».

وأكد أن هذه الأحاديث دلت على فضيلة العشر الأواخر من رمضان، وشدة حرص النبي – صلى الله عليه وسلم– على اغتنامها والاجتهاد فيها بانواع القربات والطاعات، فينبغي لك أيها المسلم ان تفرّغ نفسك في هذه الأيام، وتخفف من الاشتغال بالدنيا، وتجتهد فيها بأنواع العبادة من صلاة وقراءة، وذكر وصدقة، وصلة للرحم واحسان الى الناس، فانها –والله– أيام معدودة، ما أسرع أن تنقضي، وتطوى صحائفها، ويختم على عملك فيها، وأنت –والله– لا تدري هل تدرك هذه العشر مرة أخرى، أم يحول بينك وبينها الموت، بل لا تدري هل تكمل هذه العشر، وتوفق لاتمام هذا الشهر، فالله الله بالاجتهاد فيها والحرص على اغتنام أيامها ولياليها، وينبغي لك أيها المسلم أن تحرص على ايقاظ أهلك، وحثهم على اغتنام هذه الليالي المباركة، ومشاركة المسلمين في تعظيمها والاجتهاد فيها بانواع الطاعة والعبادة.

وقال: لنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسوة حسنة فقد كان اذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله وأيقظ أهله، مبينا أن ايقاظه لأهله ليس خاصاً في هذه العشر، بل كان يوقظهم في سائر السنة، ولكن ايقاظهم لهم في هذه العشر كان أكثر وأوكد. قال سفيان الثوري: أحب اليه اذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده الى الصلاة ان أطاقوا ذلك.

وشدد على أنه من الحرمان العظيم، والخسارة الفادحة، أن نجد كثيرا من المسلمين، تمر بهم هذه الليالي المباركة، وهم عنها في غفلة معرضون، فيمضون هذه الأوقات الثمينة فيما لا ينفعهم، فيسهرون الليل كله أو معظمه في لهو ولعب، وفيما لا فائدة فيه، أو فيه فائدة محدودة يمكن تحصيلها في وقت آخر، ليست له هذه الفضيلة والمزية، لافتا الى ان بعض الناس اذا جاء وقت القيام، انطرح على فراشه، وغط في نوم عميق، وفوت على نفسه خيرا كثيرا، لعله لا يدركه في عام آخر.

وبين أن من خصائص هذه العشر: ما ذكرته عائشة من أن النبي – صلى الله عليه وسلم– كان يحيي ليله، ويشد مئزره، أي يعتزل نساءه ليتفرغ للصلاة والعبادة. وكان النبي – صلى الله عليه وسلم– يحيي هذه العشر اغتناما لفضلها وطلبا لليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

وقد جاء في صحيح مسلم عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: ما أعلم – صلى الله عليه وسلم– قام ليلة حتى الصباح» ولا تنافي بين هذين الحديثين. لأن احياء الليل الثابت في العشر يكون بالصلاة والقراءة والذكر والسحور ونحو ذلك من أنواع العبادة، والذي نفته، هو احياء الليل بالقيام فقط.

ومن خصائص هذه العشر أن فيها ليلة القدر، التي قال الله عنها: «ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر». وقال فيها: «انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم» أي يفصل من اللوح المحفوظ الى الملائكة الكاتبين كل ما هو كائن في تلك السنة من الأرزاق والآجال والخير والشر، وغير ذلك من أوامر الله المحكمة العادلة.

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم– «وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها الا محروم» حديث صحيح رواه النسائي وابن ماجه.

قال الامام النخعي: «العمل فيها خير من العمل في الف شهر سواها».

وقد حسب بعض العلماء «ألف شهر» فوجدوها ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فمن وفق لقيام هذه الليلة وأحياها بأنواع العبادة، فكأنه يظل يفعل ذلك أكثر من ثمانين سنة، فياله من عطاء جزيل، وأجر وافر جليل، من حرمه فقد حرم الخير كله.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: «من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» وهذه الليلة في العشر الأواخر من رمضان لقول النبي – صلى الله عليه وسلم– «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» متفق عليه.

وهي في الأوتار منها آخرى وأرجى، وفي الصحيحين أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: التمسوها في العشر الأواخر في الوتر» أي في ليلة احدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين. وقد ذهب كثير من العلماء الى أنها لا تثبت في ليلة واحدة، بل تنتقل في هذه الليالي، فتكون مرة في احدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو تسع وعشرين.

وقد اخفى الله سبحانه علمها على العباد رحمة بهم، ليجتهدوا في جميع ليالي العشر، وتكثر أعمالهم الصالحة فتزداد حسناتهم، وترتفع عند الله درجاتهم «ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون». واخفاها سبحانه حتى يتبين الجاد في طلب الخير الحريص على ادراك هذا الفضل، من الكسلان المتهاون، فان من حرص على شيء جد في طلبه، وسهل عليه التعب في سبيل بلوغه والظفر به، فأروا الله من أنفسكم خيرا واجتهدوا في هذه الليالي المباركات، وتعرضوا فيها للرحمات والنفحات، فان المحروم من حرم خير رمضان، وان الشقي من فاته فيه المغفرة والرضوان. يقول النبي – صلى الله عليه وسلم– «رغم أنف من أدرك رمضان ثم خرج ولم يغفر له» رواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

ان الجنة حفت بالمكاره، وانها غالية نفيسة، لا تنال بالنوم والكسل، والاخلاد الى الأرض، واتباع هوى النفس. يقول النبي – صلى الله عليه وسلم– «من خاف أدلج – يعني من أول الليل– ومن أدلج بلغ المنزل، ألا ان سلعة الله غالية، ألا ان سلعة الله الجنة». وقد مثل النبي – صلى الله عليه وسلم– المسافر الى الدار الآخرة –وكلنا كذلك – بمن يسافر الى بلد آخر لقضاء حاجة أو تحقيق مصلحة، فان كان جاداً في سفره، تاركاً للنوم والكسل، متحملاً لمشاق السفر، فانه يصل الى غايته، ويحمد عاقبة سفره وتعبه، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

وأما من كان نواما كسلان متبعاً لأهواء النفس وشهواتها، فانه تنقطع به السبل، ويفوته الركب، ويسبقه الجادون المشمرون، والراحة لا تنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تنال الا على جسر من التعب والمشقات «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (آل عمران:200). ومن خصائص هذه العشر المباركة استحباب الاعتكاف فيها، والاعتكاف هو: لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله عز وجل – وهو من السنة الثابتة بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم– قال الله تعالى: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» وكان النبي – صلى الله عليه وسلم– يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، واعتكف أزواجه وأصحابه معه وبعده.

وفي صحيح البخاري عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: كان النبي – صلى الله عليه وسلم– يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما.

والمقصود بالاعتكاف: انقطاع الانسان عن الناس ليتفرغ لطاعة الله، ويجتهد في تحصيل الثواب والأجر وادراك ليلة القدر، ولذلك ينبغي للمعتكف أن يشتغل بالذكر والعبادة، ويتجنب ما لا يعنيه من حديث الدنيا، ولا بأس أن يتحدث قليلاً بحديث مباح مع أهله أو غيرهم.

ويحرم على المعتكف الجماع ومقدماته لقوله تعالى: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد».

وأما خروجه من المسجد فهو على ثلاثة أقسام:

1 – الخروج لأمر لابد منه طبعاً أو شرعاً لقضاء حاجة البول والغائط والوضوء الواجب والغسل من الجنابة، وكذا الأكل والشرب فهذا جائز اذا لم يمكن فعله في المسجد، فان أمكن فعله في المسجد فلا. مثل أن يكون في المسجد دورات مياه يمكن أن يقضي حاجته فيها، أو يكون له من يأتيه بالأكل والشرب، فلا يخرج حينئذ لعدم الحاجة اليه.

2 – الخروج لأمر طاعة لا تجب عليه كعيادة مريض، وشهود جنازة ونحو ذلك، فلا يفعله الا أن يشترط ذلك في ابتداء اعتكافه مثل أن يكون عنده مريض يحب أن يعوده أو يخشى من موته، فيشترط في ابتداء اعتكافه خروجه لذلك فلا بأس به.

3 – الخروج لأمر ينافي الاعتكاف كالخروج للبيع والشراء ونحو ذلك، فلا يفعله لا بشرط ولا بغير شرط؛ لأنه يناقض الاعتكاف وينافي المقصود منه، فان فعل انقطع اعتكافه ولا حرج عليه.

التخطيط النبوي الدقيق سبب نجاح الدعوة السرية

كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف بنفسه على تربية أصحابه في كافة الجوانب، ووزعهم في أسر، فمثلا كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، كانوا في أسرة واحدة مع نعيم بن عبدالله النحام بن عدي، وكان معلمهم خباب بن الأرت، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصرون منه على تجويد تلاوته وضبط مخارج حروفه ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته، بل كان همهم دراسته وفهمه، ومعرفة أمره ونهيه والعمل به.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم وبحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركا تماما أنه سياتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعوة علنًا وجهرًا، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وفوتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لابد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي وصحبه على دار الأرقم بن أبي الأرقم، إذ أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية والتنظيم، ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان آمن بعيد عن الانتظار، ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده، خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية.

ومما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعد أتباعه ليكونوا بناة الدولة وحملة الدعوة، وقادة الأمم، هو حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا.

ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر –غير ذلك– فلابد من السرية التامة في التنظيم، وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون بها إلى مكان اللقاء.

2 – دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة):

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرًا لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص. قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام».

أصبحت دار الأرقم السرية مركزًا جديدا للدعوة يجتمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جديد من الوحي، ويستمعون له –عليه الصلاة والسلام– وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم، عليه الصلاة والسلام على عينه. كما تربى هو على عين الله عز وجل، وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي صلى الله عليه وسلم.

عِظم جرم الكذب لا يعني تسويغ غيره من المعاصي

ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني والإمام الكذاب والعائل المزهو

إن عظم جرم الكذب عن غيره من المعاصي لا يعني أبدا تسويغ البخل أو تهوين الجبن كيف؟ ومنع الزكاة وترك الجهاد بأبان إلى الكفران؟ وكلما اتسع نطاق الضرر إثر كذبة يشيعها أفاك جريء كان الوزر عند الله أعظم فالصحافي الذي ينشر على الألوف خبرا باطلاً والسياسي الذي يعطي الناس صورا مقلوبة عن المسائل الكبرى وذي الغرض الذي يتعمد سوق التهم إلى الكبراء من الرجال والنساء أولئك يرتكبون جرائم أشق على أصحابها وأسوأ عاقبة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رأيت الليلة رجلين أتياني قالا لي: الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يكون الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة». ومن هذا القبيل كذب الحكام على الشعوب فإن كذبة المنبر بلقاء مشهورة. وفي الحديث: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني والإمام الكذاب والعائل المزهو» الفقير المتكبر. والكذب على دين الله من أقبح المنكرات وأول ذلك نسبة شيء إلى الله أو إلى رسوله لم يقله. وهذا الضرب من الافتراء فاحش في حقيقته وخيم في نتيجته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد؟ فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار «ويدخل في نطاق هذا الافتراء سائر ما ابتدعه الجهال وأقحموه على دين الله من مُحدثات لا أصل لها عدها العوام دينا وما هي بدين ولكنها لهو ولعب! وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى مصادر هذه البدع المنكرة وحذر من الانقياد إلى تيارها ومسك المسلمين بأي كتابهم وسنة سلفهم قال: يكن في آخر أمتي أناس دجالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم! فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم.

والإسلام يوصي أن تُغرس فضيلة الصدق في نفوس الأطفال حتى يشبوا عليها وقد القوها في أقوالهم وأحوالهم كلها. فعن عبدالله بن عامر قال: دعتني أمي يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا فقالت: تعال أعطك فقال لها صلى الله عليه وسلم «ما أردت أن تعطيه؟» قالت: أردت أن أعطيه تمرا فقال لها: «أما إنك لو لم تُعطه شيئا كتبت عليك كذبة». وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال لصبي: تعال هاك ثم لم يعطه فهي كذبة». فانظر كيف يُعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمهات والآباء أن يُنشئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق ويتنزهون عن الكذب ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهينة لخشي أن يكبر الأطفال وهم يعتبرون الكذب دُنيا صغيرا وهو عند الله عظيم. وقد مشت الصرامة في تحري الحق ورعاية الصدق حتى تناولت الشؤون المنزلية الصغيرة. عن أسماء بنت يزيد قالت: يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه: لا أشتهيه. يُعد ذلك كذبا؟ قال: «إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة». وقد أحصى الشارع مزالق الكذب وأوضح سوء عقباها حتى لا يبقى لأحد منفذا إلى الشرود عن الحقيقة أو الاستهانة بتقريرها. فالمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح! حاسبا أن مجال اللهو لا حظر فيه على إخبار أو اختلاق ولكن الإسلام الذي أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك إلا في حدود الصدق المحض! فإن في الحلال مندوحة عن الحرام وفي الحق غناء عن الباطل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويل للذي يحدث بالحديث ليُضحك منه القوم فيكذب ويل له ويل له».